

## التفاضل بين الرجل والمرأة في الإسلام



ليس هناك تفاضل معنوي بين اثنين يمتلك كل منهما خصائص يدنية خاصة أو إمكانات عملية متميزة، فنحن لا نميز مثلاً على الصعيد الإنساني بين شخص طويل وآخر قصير أو متوسط الطول، ولا نميز معنوياً وفي مقدار الاحترام بين طبيب ومهندس ومعلم وعامل، رغم اختلاف تخصص وعمل كل منهم وحتى اختلاف المستوى الاقتصادي، فكل منهم إنسان له احترامه وله شخصيته وله كيانه الخاص الذي يجب أن يُحفظ، وله شخصيته القانونية المتساوية مع الآخرين، وكل منهم له صوت واحد في الانتخابات، كما إن كلاً منهم متساوٍ أمام الله تعالى في عبوديته وربوبية الله تعالى له.

وكذلك الرجل والمرأة، فإن اختلاف الجسم وحجم العظام وشكل الهندام لا يعني بحال أفضلية أحدهما على الآخر، أو يستدعي تمييزه وإعطاءه موقفاً إنسانياً واجتماعياً خاصاً، وإنما تبقى ميادين التفاضل هي، كما بين أبناء الجنس الواحد، بين الرجال أو النساء، أو الرجال والنساء معاً.

لذا فإن الخطاب في القرآن الكريم: يا أيها الذين آمنوا، يا أيها الناس... كان عاماً، يشمل الذكور والإناث دون استثناء أو تخصيص.

ومن معايير التفاضل في الإسلام هي: التقوى، العلم، العمل الصالح، الجهاد، ... إلخ.

والرجال والنساء على السواء مدعوون إلى التنافس في الخيرات والاستباق في هذه المجالات الطيبة دون تمييز على أساس الجنس، فقد تكون امرأة معينة أفضل من كثير من الرجال والنساء معاً، بل قد تكون في مستوى القدوة للرجال والنساء معاً، كما يكون رجل معين في مستوى أعلى من غيره. ومن المفيد هنا أن نستعرض النصوص التي تلغي التمييز في مجالات التفاضل وتفتح الساحات للمرأة والرجل معاً للسمو والرفعة والتقدم:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَخَوُّنَ وَابْتَغُوا جَنَّةَ الَّتِي تَعْلَمُونَ) (الحجرات/ 13).

والآية صريحة في أن التفاضل بالتقوى باب مفتوح للذكر والأنثى على السواء، وفي القرآن الكريم صفحات مشرقة لنساء بلغن العُلَى في الإيمان والورع والتقوى حتى كنّ قدوة للذين آمنوا: رجالاً ونساءً، ف ضرب أهن المثل الأعلى، قال تعالى:

(وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ الْفَقْوَمِ الطَّالِمِينَ \* وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُنْتِ مِنَ الْقَائِمِينَ) (التحریم/ 11-12).

فالأولى هي آسية بنت مزاحيم، زوجة فرعون، آمنّت باه تعالى وكفرت بزوجهها، فهدّدها بالقتل، فأثرت جواراه في بيت من صنع اله، فاستجاب اله لها ورحب بها وأعدّ لها أجراً كريماً، فما ضرّها أن كانت زوجة أعتى أهل الأرض، كما لم ينفع امرأة نوح أو لوط أنّها زوجة خير الناس.

والثانية مريم التي حافظت على طهرها ونزاهتها، فكانت أهلاً لأن تحمل بالسيّد المسيح (ع)، وأن تؤمن وترتفع في سلام الإيمان، حتى عدّها اله تعالى في "القائمين": أي من القوم المطيعين اله الخاضعين له الدائمين في طاعته.

وقد ذكر القرآن الكريم مريم باسمها في بضع وثلاثين موضعاً في نيف وعشرين سورة، وفي ذلك دلالة على مكانتها السامية وعلى اهتمام القرآن بشخصيتها وتعظيمه وتقديمه لها مثلاً رائعاً يهتدي الناس بهديه ويسيرون بنهجه دون أن يكون لأنوثتها آية إعاقة في أن تبلغ المستوى الذي بلغته وأن تُرفَع إلى الموقع الذي اعتلته.

وفي قصّتها وقصّة ولدها السيّد المسيح (ع)، الكثير من العبر ما جعلهما بنصّ القرآن "آية للعالمين".

وقد ورد في أحد سياقات قصّة مريم (ع) ما يستدعي التوقّف عنده والتأمل فيه ممّا يخصّ بحثنا حول المرأة وموقعها في الرسالات الإلهية وإمكانية تقدّمها على الرجل، في ميدان العبادة والتقوى والمكانة عند اله تعالى، والآيات هي:

(إِذْ قَالَتِ امْرَأةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ \* فَلَمَّآ وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَئِيسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتُهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ \* فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّنِي لَكَ هَذَا قَالَ هُوَ مِنَ عِنْدِ اللَّهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ \* هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ) (آل عمران/ 35-38).

إذ تتناول الآيات الكريمة قصّة نذر امرأة عمران - بن ماثان - وهو جدّ المسيح (ع) ما في بطنها ليكون معتقاً تماماً في خدمة اله تعالى: يعبده ويخدم في الأماكن المختصة بالعبادة، والنكات اللطيفة في الآيات المتعلقة بموضوعنا هي:

(أ) كانت امرأة عمران تريد بنذرهما ولداً ذكراً، ليكون خادماً لله تعالى، ومع علم اله تعالى بنبيّتها وقبوله لنذرهما، ولكنّه اختار لها مريم، صدّيقه طاهرة:

(وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ) (فصلت/ 47).

وفيه إشارة إلى أن لا فرق في مجال الخدمة بين يدي ال ذكر والأنثى، وأن هذه الوليدة الأنثى يمكنها أن تحفِّق ما نذرت له أمها رغم اعتقادها بأنه لا يقوم بذلك إلا الولد.

ب) اختلف المفسِّرون في نسبة جملة (وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى) (آل عمران/ 36)، هي تعالَى، أم هي مقولة امرأة عمران.

فعلى القول الثاني: أن امرأة عمران تحسَّرت وتلهَّفت على ما فاتها من النذر، وقد طنَّت أن ولدها ذكر فنذرت له ليخدم ال في معابده، فلمَّا وضعته أنثى، تحسَّرت لذلك وقالت تلك الجملة.

وعلى هذا الرأي فإنَّ قوله تعالى: (وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ) يدلُّ على أن هذا المولود "الأنثى" يحقِّق ما نذرت له وما تمنَّت، ففيه سرٌّ عظيم وأن لا تخلف ولا إخفاق في نذرها، فنذرها خالص، وال سبحانه وتعالى قبل منها نذرها وحقَّق منهاها في مريم (ع)، فهو يقول: (فَتَقَدَّبْ بِهَا رِبُّهَا بِقَدُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا).

أمَّا القول الأول، فقد نسب القول (وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى) إلى ال تعالَى، وفيه أيضًا تأكيد لنفس المعنى، من أن هذه الأنثى بمستوى رفيع ومكانة سامية لا يصل إليها الذكر الذي كانت ترجوه، قال الطباطبائي: "قوله: وال أعلم بما وضعت، أنَّهُ مسوق لبيان أنَّا نعلم أنَّهُ أنثى، لكنَّا أردنا إنجاز ما كانت تتمنَّاه بأحسن وجه وأرضى طريق، ولو كانت تعلم ما أردناه من جعل ما في بطنها أنثى لم تتحسَّر ولم تحزن ذلك التحسُّر والتحزُّن، والحال أن الذكر الذي كانت ترجوه لم يكن ممكنًا أن يصير مثل هذه الأنثى التي وهبناها لها، فإنَّ غاية أمره أن يصير مثل عيسى نبيًّا مبرئًا للأكمه والأبرص ومحبيًّا للموتى، لكن هذه الأنثى ستتم به - بها - كلمة ال وتلد ولداً بغير أب، وتُجعل هي وابنها آية للعالمين، ويُكَلِّم الناس في المهد، ويكون روحاً وكلمة من ال، مثله عند ال كمثل آدم... إلى غير ذلك من الآيات الباهرات في خلق هذه الأنثى الطاهرة المباركة وخلق ابنها عيسى (ع)".

وهذه دلالة ما بعدها دلالة على أن الأنوثة والذكورة ليس لهما أثر في سلّم الترقُّي والصعود إلى المراتب السامية عند ال تعالَى، فلا الذكورة تأهيل على هذا الصعيد ولا الأنوثة عائق في هذا السبيل، بل الأكرم عند ال هو الأتقى، رجلاً كان أم امرأة.

## 2- مجال العمل الصالح:

ولأنَّ الإيمان تصديق باللِّسان وعمل بالأركان، فالعمل الصالح هو الثمرة الطبيعية للإيمان الحقيقي، ولا إيمان إلا بعمل...، كذلك كان ميدان العمل الصالح مفتوحاً أمام الرجل والمرأة على السواء، يتنافسون فيه بالخيرات...

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ) (الزلزلة / 7).

(وَمَنْ عَمِلْ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ...) (غافر / 40).

ذلك أنَّ ال تعالَى يقول:

(فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ) (آل عمران / 195).

فالعبارة عند ال تعالَى بالأعمال لا بالمال والرجال، وبالإخلاص لا بهتاف الناس، والذكر ابن الأنثى، والأنثى بنت الذكر، فتماثلهما في المصدر يستدعي تماثلهما في الحكم والأثر.

ولأنَّ الإيمان والعمل الصالح يؤدِّيان إلى الجنَّة، فإنَّ ال تعالَى لم يخلق جنَّته للرجال ولا ناره

للنساء، إنَّما: (يَتَذُوبَ اللَّيْثُ عِلَايَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ...) (الأحزاب/ 73).

(لِيُذْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ) وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّيْثِ فَوَزَّاهُ عَظِيمًا (الفتح/ 5).

بل إنَّ "الجنَّة تحت أقدام الأمَّهات" (حديث شريف).

وفي المقابل: (وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ) (الزلزلة/ 8).

(وَيُعَذِّبُ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُتَّاقَاتِ وَالْمُتَّاقِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ...) (الفتح/ 6).

### 3- مجال العلم:

(يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ) (المجادلة/ 11).

(قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ) إِنََّّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ (الزمر/ 9).

(إِنََّّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ) إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ (فاطر/ 28).

الإسلام، وكذلك جميع الرسالات الإلهية، دين العلم والمعرفة، وقد كانت أوَّل كلمة من الوحي "اقرأ" بياناً لأهمية المعرفة في دنيا الإسلام وأنها هي المرتكز الأوَّل للإيمان كما هي المرتكز الأوَّل للعلم والحضارة.

والقرآن الكريم، وهو دستور الإسلام، تتردّد في سائر أنحاء كلمات: العلم، والتعلّم، ومفردات مثل، عليم، عالم، عالمون، علماء، في أكثر من ثمان مئة وخمسين مورداً، فهو كتاب علم، ومنهج معرفة، وأمثال حكمة (وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ) (العنكبوت/ 43).

ومن أسماء □ الحسنی: العليم، وقد جاء ذكره تعالى بهذه الصفة في مئة وستة وستين مورداً في القرآن، والأسماء هي تعبير عن صفات □، وإليها يتّجه المؤمنون: (وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا) (الأعراف/ 180).

لذا كان "طلب العلم فريضة على كلِّ مسلم ومسلمة".

ومنذ الصدر الأوَّل للإسلام، تقدّمت المرأة في ميادين العلم والمعرفة، فكان في الرواية عن رسول □ (ص) جملة من النساء الصحابيات، ومنهم أزواج الرسول الكريم (ص)، وتناقل العلماء جيلاً بعد جيل - ورغم الجدل الواسع فيما روي - ما رووا وروين عن رسول □ (ص)، إلا أن أحداً لم يقدر في رواية لروايتها عن النساء، ممّا يدلّ على أن المرأة احتلّت موقعاً علمياً معترفاً به من جمهور المسلمين..

ونجد في جملة من روي عن الرسول (ص) من النساء، أسماء كثيرة، ممّن أكثر الرواية أو أقل، ومنهن: أسماء بنت أبي بكر، وأسماء بنت عميس، وأم أنس بن مالك، وأم أيمن مولاة رسول □ (ص)، وأم حبيبة، وأم حزام بنت ملخان، وأم الحصين، وأم خالد، وأم رومان، وأم سليط، وأم سليم، وأم شريك، وأم

عطيّة، وأمّ العلاء، ولبابة أم الفضل، وأمّ قيس، وأمّ كلثوم بنت عقبة، وأمّ مبشر، وأمّ هاني (فاخته) بنت أبي طالب، وأمّ هشام بنت حارثة، وجريرة بنت الحارث، وخنساء بنت حذام، وخولة بنت ثامر، وخولة بنت حكيم، وزينب امرأة ابن مسعود، وزينب بنت أبي سلمة، وزينب العطار، وسبيعة الأسلمية، وسودة بنت زمعة، وصفية بنت شيبه، وصفية بنت عبدالمطلب... وغيرهنّ من أصحاب رسول الله (ص).

ومن أزواجه: أم سلمة (هند بنت الحارث)، وحفصة بنت عمر، وخديجة بنت خويلد، وزينب بنت جحش، وعائشة بنت أبي بكر...

ومن ذريّته: ابنته سيّدة النساء فاطمة الزهراء (ع).

ونجد أيضاً نساء روين عن سائر الأئمة وتناقل العلماء الرواية عنهنّ.

إنّنا نسجّل هنا ملاحظة تاريخية هامّة، وهي أنّ الرواية عن النساء وعدد من روى منهنّ في قلّة وتناقض كليّما ابتعد الزمن بنا عن عهد رسول الله (ص)، وهو يدلّ على أنّ الإسلام فجر طاقات المرأة وفتح باب العلم أمامها، إنّنا أنّ التراجع عن الإسلام والابتعاد عن أصوله الأولى، قلّل من هذا التأثير والتغيير، وعادت المرأة تواجه الظروف المتخلّفة للمجتمعات المختلفة مرّة أخرى.

وعلى أي حال، فالإسلام فتح باب العلم في وجه المرأة، كما فتحه في وجه الرجل، وسهّل سبل ارتقاء المرأة مدارج المعرفة وأن تحتل موقعا بين العلماء، وللإسلام في تصدّي المرأة لمقام التعليم، وتناول الفكر الديني، وممارستها العمل السياسي واستقلالها الاقتصادي، السبق عن سائر الحضارات المعاصرة له حتى يومنا الحاضر.

ومن أعجب الافتراءات ما ذهب إليه بعض المستشرقين كـ(دينان) من أنّ الإسلام لا يشجّع على العلم، مع أنّ كلّ دعوة الإسلام، دعوة إلى التفكير والتعقّل واكتساب العلم وإكرام العلماء.

والأعجب من ذلك أن يوعز البعض انخفاض نسبة التعلّم في بعض الدول العربية الإسلامية إلى الإسلام، ليغمض بذلك عينيه عن حقيقة أعلنها الإسلام منذ انطلاقاته، عندما جعل طلب العلم على المرأة فريضة، لا مجرد حقّ تكسبه إن أرادت أو ترفضه إن أبت.

ونكتفي بهذا القدر، تاركين التفصيل الذي لا يستوعبه بحثنا هنا، فسائر الموارد التي يتفاضل فيها الإنسان في الإسلام تشمل المرأة والرجل على السواء، وإن اختلفا في خلقهما وطبيعتهما، إلا أنّ هذا الاختلاف وتنوّع الأدوار الناتج عنه، لم يؤثّر في إمكانية تقدّمهما في مدارج الكمال، وأن يتفاضلا كلّ بمقدار ما أحسن، في سبيل الإسلام، دون أن يكون لجنسهما تأثير في ذلك.

المصدر: كتاب المرأة.. أزمة الهوية وتحديات المستقبل